

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الانسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد، محمد الأمين المختار رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد فإن ظاهرة (القلب المكاني) تعد من الظواهر الصوتية التعليلية في أصوات أبنية الكلمات كالتماثل والادغام والتخالف والاعلال والامالة والاتباع، تهدف الى تحقيق السهولة والتيسير في النطق، غير انها تختلف عن تلك الظواهر في ان التغير فيها يقتصر على مواضع ترتيب الأصوات في بنية الكلمة، وليس في ذوات الأصوات واجسامها إذ يلجأ المتكلم الى استعمال ظاهرة القلب المكاني المتمثلة بتقديم بعض حروف الكلمة وتأخير بعضها، في حالة استحالة اللجوء الى التماثل والتخالف والاعلال والابدال والادغام وغيرها من مظاهر تقريب الصوت من الصوت بغية تحقيق الخفة والسهولة في النطق.

وسنقصر البحث على التعريف بظاهرة القلب المكاني وتفسيرها وتعليل وجودها في صوامت كلمات العربية، وأخرج من البحث (القلب الإعلالي) أحد أشكال التغير في حروف العلة (المصوتات) فضلاً عن الحذف والاسقاط ونقل الحركة مما يدخل في ظاهرة الاعلال المشهورة عند الصرفيين قديماً وحديثاً كقلب الواو والياء همزة في نحو (كساء وقضاء) وقلب الواو والياء ألفاً في نحو (قَوْمٌ قَامَ وَبَيْعٌ بَاعَ) وقلب الواو ياء في نحو (مِيزَانٌ وَمِيزَانٌ وَمِوْعَادٌ مِيعَادٌ) وقلب الياء واواً في نحو (مُيَقِنٌ وَمُوقِنٌ وَمُيسِرٌ وَمُوسِرٌ)، وغير ذلك من صور القلب الاعلالي التي أشبعت بحثاً ودراسة من قبل القدامى والمحدثين.

والقلب المكاني من ظواهر الصوتية الشائعة في العربية وسائر اللغات الأخرى، ولاسيما السامية منها.

وسيعتمد هذا البحث على ما كتبه القدامى من علماء العربية في تحديد هذه الظاهرة وتفسيرها وبيان أحكامها وأدلتها وأسبابها، وأخص منهم أهل اللغة، وأهل التصريف من النحاة، كما أننا سنورد آراء المحدثين وتفسيراتهم لهذه الظاهرة في العربية الفصحى، واللهجات المحلية الدارجة.

وسيقوم هذا البحث على ثلاثة مباحث هي:

1- التعريف بالقلب المكاني وأحكامه وأدلته.

2- القلب المكاني في الميزان الصرفي.

3- أسباب القلب المكاني.

أولاً: التعريف بالقلب المكاني وأحكامه وأدلته

القلب في اللغة: التحويل والتصرف، قال الخليل: (القلبُ تحويلُك الشيء عن وجهه، وكلام مقلوب، وقلبته فانقلب وقلبته فتقلب، وقلبْتُ فلاناً عن وجهه أي صرفته....)⁽¹⁾.

والقلب في اصطلاح الصرفيين يعني:

1. ابدال حروف العلة والهمزة بعضها مع بعض، فهو أخصُّ من الابدال الذي موضعه الحروف الصحيحة (الصوامت) من بنية الكلمة لا غير.
2. ويطلق كذلك عندهم على تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ويسمى قلباً مكانياً نحو آرام فان أصله آرام.

وعلاوة صحة القلب المكاني ان تكون تصارييف الأصل تامة بأن يصاغ منه فعل ومصدر وصفة، ويكون الآخر ليس كذلك، فيعلم من عدم تكميل تصارييفه انه ليس ببناءً أصلياً⁽²⁾.

ومن خلال الجمع بين المعنيين: اللغوي والاصطلاحي للفظ (قلب)

يمكن تعريف القلب المكاني بأنه: تقديم وتأخير يحدث في حروف بنية

الكلمة، بسبب تغيراً في ترتيب حروفها، لتتولد كلمة جديدة متفرعة من الكلمة الأصلية، توافقها في المعنى وتخالقها في ترتيب حروف المبني، ومن أمثلة هذه الظاهرة قولهم: (جذبَ وجبَذَ، وأنضبَ وأنبضَ، وطمسَ وطسمَ وأطيبَ وأيطبَ، وصاقة وصاقعة، وأضمحلَّ وأمضحلَّ.... الخ)⁽³⁾.

ومصطلح (القلب المكاني) عبارة مركبة من كلمتين، الأولى كلمة (القلب) الموصوفة وهي مصدر من الفعل (قَلَبَ) والثانية كلمة (مكاني) وهي وصف يحدد نسبة القلب وإضافته إلى (المكان) أو (الموضع) وهي تمييز لهذا النوع من القلب من أنواع القلب الأخرى أقصد (القلب الإعلالي) أو (القلب الإبدالي) مما يحدث للأصوات في ذواتها لا في مواقع ترتيبها في الكلمة وقد استقرَّ استعمال هذا المصطلح عند الصرفيين واللغويين في مباحث بناء وتأسيس الألفاظ واشتقاقها.

وعلى وفق هذا المفهوم للمصطلح سيقوم هذا البحث، إذ سيقصر على القلب في صوامت ابنية صبيغ العربية ويخرج ما عداها من أنواع القلب الأخرى.

لقد عرفَ علماء العربية القدامى ظاهرة القلب المكاني، إذ أشار إليها الخليل⁽⁴⁾ (175هـ) وسيبويه⁽⁵⁾ (180هـ) والمازني⁽⁶⁾ (249هـ) وابن جني⁽⁷⁾ (392هـ) وغيرهم من النحاة وأهل التصريف، غير أن اللغويين كانوا أكثر اهتماماً بهذه الظاهرة، إذ صنَّف ابن السكيت (243هـ) فيها كتاباً لم يصل إلينا يقول السيوطي (911هـ): (وقد أَلَفَ ابن السكيت في هذا النوع كتاباً ينقل عنه صاحب الصحاح)⁽⁸⁾ ومن اللغويين من جمع أَلَفاظ العربية المقلوبة في أبواب وفصول من مؤلفاتهم، نذكر منهم أبا عبيد: القاسم بن سلام⁽⁹⁾ (224هـ) الذي عقد باباً للمقلوب في غريبه، ومثله فعل ابن قتيبة⁽¹⁰⁾ (276هـ) في أدب الكاتب، وابن دريد (321هـ) في الجمهرة⁽¹¹⁾ وابن سيده (458هـ) في مخصصه⁽¹²⁾ والسيوطي (911هـ) في مزهره⁽¹³⁾ وأنفرد ابن درستويه (347هـ) برأي مخالف لجمهور علماء العربية إذ انكر

القلب المكاني وأبطل وجوده في كتاب وسمه بـ(إبطال القلب) وقد أشار الى مذاهبه هذا في كتابه: (تصحيح الفصيح) إذ قال: (وأما البطيخ ففاكهة معروفة، وهي بكسر الأول وتشديد الثاني على بناء (فعيل) وهي عربية محضة، وفيها لغة أخرى وهي الطيخ- بتقديم الطاء وليست عندنا على القلب كما يزعم اللغويون، وقد بينّا الحجة في ذلك في (إبطال القلب))⁽¹⁴⁾. ويفهم من كلامه أن (الطيخ والطيخ) هما لغتان وليس احدهما مقلوباً عن الآخر.

وعنى الباحثون المحدثون من عرب ومستشرقين بظاهرة القلب كذلك وخصصوا لها حيزاً من مؤلفاتهم محاولين تفسيرها تفسيراً علمياً بوساطة وسائلهم الحديثة في البحث اللغوي، وسوف أشير الى أفكارهم وآرائهم في محاور هذا البحث (إن شاء الله تعالى).

لقد لاحظتُ في كلام علماء العربية في تفسيرهم لهذه الظاهرة تركيزهم في فكرة الأصل والفرع في بنية الكلمة؛ لأن الحكم بوجود القلب في لفظين يقتضي تحديد الأصل فيهما ليتسنى معرفة صورة القلب، ونوع التقديم والتأخير في حروف اللفظ المتفرع من الأصل.

وأهم طرق تحديد الأصل لديهم هي:

الرجوع الى المصدر: فما له مصدر مستعمل في كلامهم هو الأصل، وما ليس له مصدر مستعمل هو الفرع، وفي ذلك ينقل السيوطي عن علم الدين السخاوي (643هـ) في شرحه لكتاب المفصل للمزخشري (538هـ) قوله: (إذا قلبوا لم يجعلوا للفرع مصدراً، لئلا يلتبس بالأصل، بل يقتصر على مصدر الأصل، ليكون شاهداً للأصالة نحو يئسَ يأساً، وأيسَ مقلوب منه، ولا مصدر له، فاذا وُجدَ المصدران حكمَ النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل، وليس احدهما بمقلوب عن الآخر نحو جبذَ وجذبَ، وأهل اللغة يقولون: (إن ذلك كله مقلوب).)⁽¹⁵⁾.

ومما يستدل به على الأصل والفرع في الألفاظ المقلوية: كثرة الاستعمال؛ لأن الأكثر استعمالاً من اللفظين هو الأصل، والأقل هو الفرع، وهذا ما قصده ابن عصفور الأشبيلي (669هـ) في قوله: (أن يكون أحد النظمين أكثر استعمالاً من الآخر، فيكون الأكثر استعمالاً هو الأصل والآخر مقلوباً منه نحو (لعمري) و(رعملي) فان (لعمري) أكثر استعمالاً فلذلك عدُّ الأصل).⁽¹⁶⁾

ويعرف القلب في الجمع المكسر بالرجوع الى مفرده، لتحديد الأصل وتنظيم حروفه، والمقدّم والمؤخر في اللفظ المقلوب عنه، وأمثلة ذلك (أشياء وآبار وقسيّ) فالأول مفرده شيء وجمعه شيئاء كحمراء في الأصل ثم تقدمت اللام على فاء الكلمة فصارت (أشياء) على وزن (لفعاء) وإنما عدلوا عن وزنها (أفعال) الى وزن (فعلاء) بالقلب؛ لأن أشياء ممنوعة من الصرف⁽¹⁷⁾، و(آبار) مفردها (بئر) على وزن (فعل) فالهمزة عين الكلمة، وترتيبها ان تكون بعد الباء فيكون قياس جمعها على (آبار) ووزنها (أفعال) في الأصل فجري تبادل بين الهمزة والباء في المواقع فصار وزنها (أفعال) و(قسيّ) مفردها (قوس) على وزن (فعل) وتجمع على (قُوس) على وزن (فُعُول) ثم صارت (قسو) بتقديم اللام على العين ثم صار (قسوي) بقلب الواو الثانية ياء لاجتماع الأمثال أقصد واوين وضميتين وتصير (قسيّ) بقلب الواو الأولى ياء وادغامها في الياء بعدها فصارت (قسيّ) على وزن (فلوع)⁽¹⁸⁾.

وينبغي الإشارة هنا الى مسألة مهمة في القلب المكاني كانت مثار خلاف بين البصريين والكوفيين، وهي السعة في التصرف فاذا تساوى اللفظان في التصرف، أبعاد كل منهما أصلاً وينتقي القلب أم أن أحد اللفظين مقلوب عن الآخر؟

فالبصريون ينفون وجود القلب في نحو (جذب وجذب) ويرون أنها لغتان إذا كانا كاملي التصريف يقول ابن جني: (فما تركيباه أصلاً لا قلب

فيهما قولهم: جذبَ وجَبَذَ ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه، وذلك انهما جميعاً يتصرفان تصرفاً واحداً نحو جذبَ يجذبُ جذباً، فهو جاذب والمفعول مجذوبٌ، وجَبَذَ يجبِذُ جبْذاً فهو جابِذ والمفعول مجبوذٌ، فان جعلت أحدهما أصلاً لصاحبه، فسدَ ذلك لأنك لو فعلته لم يكن احدهما أسعدُ بهذه من الأخرى..... فان قَصَرَ احدهما عن تصرف صاحبه، ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفاً أصلاً لصاحبه.(19).

أما الكوفيون فأنهم قد وسَّعوا مدلول القلب المكاني وعدُّوا ما أنكره البصريون قلباً وفي ذلك يقول أبو جعفر النحاس (338هـ): (شاكى السلاح بمعنى شايك ثم أخرج الياء كما قال الله عز وجل ﴿عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارٍ بِهِ﴾ [التوبة/109] أي هائر، وهذا هو القلب الصحيح عند البصريين، وأما ما يسميه الكوفيون القلب نحو جَبَذَ وجذبَ فليس هذا بقلب عند البصريين وإنما هما لغتان، وليس بمنزلة شاك وشائك...)(20).

ويبدو ان ما ذهب اليه الكوفيون هو الأقرب الى حقيقة القلب مما ذهب اليه البصريون، لأن ظاهرة القلب غير قياسية في أكثر حالاتها، وتعتمد على السماع وكثرة الاستعمال والشيوع، إذ (أن بعض الكلمات المقلوقة، بعد أن تشيع على الألسنة، تأخذ مجراها الطبيعي في اللغة باستعمال باقي المشتقات منها).(21).

وأيد الرضي الاسترادي (686هـ) صحة ادلة معرفة القلب المتمثلة بالرجوع الى الأصل (المصدر أو المفرد) وسعة التصرف وكثرة الاستعمال غير انه تحفظ على دليل كثرة الاستعمال لكون الصيغة المقلوقة المتفرعة عن الأصلية أكثر استعمالاً من الأصل كما في (الحادي والجاه والقسي) وفي ذلك يقول: (ويصح أن يقال: إن جميع ما ذكر من المقلوبات يعرف بأصله، فالجاه والحادي والقسي عرف قلبها بأصولها وهي الوجه والوحدة والقوس، وكذا أيس يأس باليأس وأرام وأدر برِّم ودار، فان ثبت لغتان بمعنى يُنَوِّمُ فيهما القلب، ولكل واحدة منهما أصل كجذبَ جَبَذاً وجَبَذَ جبْذاً،

لم يحكم بكون إحداهما مقلوبة من الأخرى، ولا يلزم كون المقلوب قليل الاستعمال، بل قد يكون كثيراً كالحادي والجاه، وقد يكون مرفوض الأصل كالقسي، فإن أصله— أعني القُوسَ غير مستعمل⁽²²⁾.

وظاهرة تبادل المواقع بين أصوات ابنية الكلمات أو القلب المكاني ليست مقصورة على اللغة العربية بل عرفت في اللغات الأخرى ومنها الحبشية والعبرية والسريانية والآرامية يقول كارل بروكلمان: (وفي الحبشية يحدث القلب المكاني بين الصوت الشفوي وصوت الصفيّر، كما يحدث بين الصوت الغاري وصوت الصفيّر.... وفي العبرية يحدث القلب المكاني بين الأصوات المائعة، كما يحدث بين الصوت المائع والحركة، وفي الآرامية يحدث بين الصوت الشفوي وصوت الصفيّر..⁽²³⁾ ومثل لذلك بألفاظ من هذه اللغات.

ثانياً: القلب المكاني في الميزان الصرفي

الميزان الصرفي: مقياس افتراضي وضعه أهل التصريف لمعرفة عدد حروف الكلمة وترتيبها، وما فيها من أحرف أصول وزائدة، والمتحرك من حروفها والساكن، وما يعتد بها من تغيير بالصحة والاعلال، والادغام والابدال والقلب وغيرها من مظاهر التحويل في أبنية الكلمات، ويتألف الميزان من مادة ثلاثية الأصول (ف ع ل) أي فاء الكلمة وعينها ولامها، فما زاد عليها زيادة أصلية كما في الرباعي والخماسي زيد عليها لام أو لامين كما في (بعثرَ وسفرجل) فالأول على زنة (فعلل) والثاني على زنة (فعلّ). (فعلّ).

أما إذا كانت الزيادة في حروف (سألتمونيها) بقي الزائد منها على لفظه نحو (انكسرَ على زلنقلّ) وكوثرَ على زنة فوعل، وعلّ مَ على زنة فَعَلّ، واحمّرَ على زنة افعَلّ، واستتصرَ على زنة استفعلّ....).

وإذا كان في الموزون حذف، فينبغي حذف ما يقابله في الزنة نحو (يَعْدُ على زنة يعل، وَقُلْ على زنة قُلْ، وَقَاضٍ على زنة فاع...). أما إذا حدث تبادل في مواقع حروف الكلمة بالتقديم والتأخير قُلْبَ ما يقابله في الزنة، ولا يمكن معرفة القلب إلا بالرجوع الى أصل الكلمة ووزنها قبل القلب، إذ يمكننا بعد تحديد فاء الكلمة وعينها ولامها، تمييز صور القلب في الكلمة⁽²⁴⁾، فإما ان يكون القلب بتقديم لام الكلمة على عينها كما في (نَاءَ المقلوب عن نَأَى) فيكون على زنة (فَلَعْ4) وأما بتقديم العين على الفاء نحو (جاء المقلوب عن وجه) فيكون على زنة (عفل) ومنه الجمع المكسر (آبار4 وآراء) فان مفردهما (بئر) و(رأي) وزنتهما: افعال. وقد تكون صورة القلب قليلة الاستعمال أو نادرة كما في تقديم اللام في الفاء في (اشياء) وأصلها (شيئاء) على زنة (الفعاء). وتأخير الفاء بعد اللام نحو (الحادي) وأصله (الواحد) وزنته على (عالف).

ويبدو ان المقلوب من كلمات العربية ليس مقبولاً كله عند أهل التصريف، وما يسمى مقلوباً عند الصرفيين: ما انقلب وزنه بانقلاب ترتيب حروف صيغته كقولهم في وزن أشياء: لفعاء مقلوبة من شيئاء، أما ما لا ينقلب وزنه بانقلاب نظم صيغته فانهم لا يسمونه مقلوباً وان كان في ترتيب حروفها تقديم وتأخير يقول ابن السيد البطليوسي (521هـ) (وليس جميع ما ذكره [ابن قتيبة] مقلوباً عند أهل التصريف من النحويين، وإنما يسمى مقلوباً عندهم ما انقلبَ تفعيله [وزنه] بانقلاب نظم صيغته كقولهم في أشياء أنها لفعاء مقلوبة من شيئاء وفي سَأَى انه مقلوب من ساءَ، أما ما لا ينقلب تفعيله بانقلاب نظم صيغته، فانهم لا يسمونه مقلوباً، وان كانت حروفه قد تَغَيَّرَ نظمها....)⁽²⁵⁾.

ولعل ما ورد في قلب مكاني من الكلمات لعلة تصريفه هو القلب القياسي عندهم، وقد ذكروا لذلك أمثلة عدة منها: أشياء وآبار وآراء، وجائي

وشاكي، ولاث وهاع ولاع وقسيّ وعصيّ، وناء وجاه وأيس، وحادي⁽²⁶⁾
ونذكر فيما يأتي تعليقات أهل التصريف لهذه الألفاظ:

1. في تعليل لفظ (أشياء) ذكر سيبويه في باب ما الهمزة فيه من موضع اللام في بنات الياء والواو قوله (وكان أصل أشياء شيئاء فكرهوا منها مع الهمزة مثل ما كره من الواو وكذلك أشاوى أصلها أشايا كأنك جمعت عليها إشاوة، وكان أصل إشاوة شيئاء ولكنهم قلبوا الهمزة قبل الشين وأبدلوا مكان الياء الواو.)⁽²⁷⁾، وفي جمع (ناقّة) على (أينق) قال في أصل الجمع (أن تجمع على أنوق بابدال الألف عين الكلمة واوًا، إلا أن العرب في جمعها قالوا: أينق فابدلوا الياء مكان الواو وقلبوا.)⁽²⁸⁾.

ونقل الرضي عن الخيل وسيبويه ان وزنها (لفعاء) لأن أصلها (شيئاء) فقدمت اللام على الفاء كراهية اجتماع همزتين بينهما حاجز ضعيف (الألف) مع كثرة استعمال هذه اللفظة.
ويرى الكسائي: ان أشياء جمع (شيء) أي على زنة (أفعال) كبيت وأبيات ومنع صرفه توهما كحمراء⁽²⁹⁾.

2. في بناء اسم الفاعل من (جاء يجيء وساء يسوء وشاء يشاء) قال المبرد (285هـ): (اعلم أنك إذا بنيت من شيء من هذه الأفعال اسماً على فاعل اعتلّ موضع العين منه فهمز على ما وصفت لك في قائل وبائع، فإذا همزت العين التقت هي واللام التي هي همزة فلزم الهمزة التي هي واللام التي هي همزة، فلزم الهمزة التي هي لام القلب الى الياء لكسرة ما قبلها.... فهذا قول النحويين أجمعين إلا الخليل بن أحمد فانه كان يقول: قد رأيتهم يفرون الى القلب فيما كانت فيه همزة واحدة استتقلاً لها فيقدمون لام الفعل، ويؤخرون الهمزة التي هي عين فيما لا يهمز فيه غيرها ليصير العين طرفاً فيكون ياء وذلك قوله: لاث به الأشاء والعبري.)⁽³⁰⁾.

3. وفي تعليل القلب في (قَسَيَّ) قال ابن السراج (316هـ): (ونقول في قَسَيَّ أصله فُعُول وكان حقه فُؤُوس ولكن قدموا اللام على العين وصيره فُلُوع).⁽³¹⁾
4. وفي تأخير الفاء على موضع اللام في لفظ (حادي) على وزن (عالف) نقل أبو علي النحوي (377هـ) عن ثعلب (391هـ) قوله: (وقال احمد بن يحيى: واحد وأحد ووحد بمعنى، والحادي عشر كأنه مقلوب الفاء الى موضع اللام).⁽³²⁾
5. وفي جمع اسم الفاعل من الاجوف المهموز اللام على صيغة الجمع (فواعل) نقول في جمع (شاء وجاء): (شواء وجَوَاء) والأصل فيها قبل القلب المكاني والحذف (شوائى وجوائى) فحدث القلب ولزم الهمزة الثانية التغيير والإبدال الى ياء لانكسار ما قبلها فصارا (شوائى وجوائى) على زنة (فوالع) ثم اعتلا اعتلال قاضٍ، بحذف آخرهما فصار وزنهما على (فَوَالٍ)⁽³³⁾.

ثالثاً: أسباب القلب المكاني

لقد عنى القدماء والمحدثون بظاهرة القلب المكاني واجتهدوا في
تفسيرها وتحليلها، وحصروا أسبابها بما يأتي:

أ. الضرورة الشعرية والانتساع في اللغة يقول ابن عصفور: (فالمقلوب على
قسمين: قسم قُلِبَ للضرورة نحو قولهم شواعي في شوايع في الشعر
قال⁽³⁴⁾).

وكان أولها كعابٍ مقامير ضربت على شُرْن فهنَّ شواعي

يريد: شوائع أي متفرقات.... وقسم قُلِبَ توسعاً من غير ضرورة
تدعو اليه، لكنه لم يطرد عليه فيقاس.... ولا يمكننا استيعاب ما جاء في
ذلك هنا لسعته.⁽³⁵⁾

ب. طلب الخفة في اثناء نطق همزتين في طرف الكلمة: إنَّ النطق
بهمزتين في طرف الكلمة أمرٌ مستكره ومستثقل في كلام العرب، لذا
يلجأ العربي الى التخلص من هذا الثقل بتخفيف إحدى الهمزتين بابدالها
ألفاً أو واواً أو ياءً أو بحذفها واسقاطها أو بنطقها بين بين، أما في اسم
الفاعل من الاجوف المهموز اللام، فإنَّ التخفيف يكون بالقلب المكاني،
اذ تقدم الهمزة على الياء في (جائي وشائي)⁽³⁶⁾ وقد تحذف الياء
وتصير جاءٍ وشاءٍ.

ج. علل أكثر اللغويين ظاهرة القلب المكاني باختلاف اللهجات العربية،
فالبصريون يعدّون نحو (جذبَ وجبَذَ، والبطيخ والطبيخ، واضمحلَّ
وامضحلَّ، وصاqqة وصاqqة، وطمسَ وطسمَ وغيرها) من باب تداخل
اللغات إذا تساوى اللفظان في التصرف وكثرة الاستعمال⁽³⁷⁾.

أما المحدثون من باحثي العربية، فانهم وافقوا القدامى من علماء
العربية في بيان أسباب هذه الظاهرة، وعَبَّروا عن أفكار القدامى
بمصطلحاتهم الحديثة، اذ عدَّ بعضهم القلب من روافد اغناء اللغة^{[ومدّها}

بألفاظ جديدة تسهم في اتساعها، وهو ما رآه الأب انتستاس الكرملّي اذ عدّ القلب من موسعات اللغة⁽³⁸⁾، وقال في كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها): (والمراد بـ(تكامل اللغة واكتمالها) تقلب أحرف تركيبها وإفادته معنى جديد واشتقاق جديد، في جميع الأوجه، وقد يكون قلب ولا يكون سائغاً، فلا يشق منه شيء ؛ لأن ذوق العرب لا يستسيغه، ويأبى أن يبقيه على لسانه، لغرابته أو لشناعته، فينبذه عنه نبذاً قصياً، لاندم فيه ولا سدم مثال ذلك قولك، (مدح) نشق منه: مدّحه وتمدّحه وامتدّحه والمدح والمديح والأمدوح والممدوح، فاذا قلبته قلت: حمّد ومنه: حمده وحمّد الله وأحمد الرجل، وتحمد به الحماد والحمادى والحمدى والحمد والحمد... الخ.)⁽³⁹⁾.

ويفهم من كلام الكرملّي أنه لا يقر بنظرية الأصل والفرع في القلب التي تقضي الى ان الأصل هو الأقوى في التصرف وكثرة الاستعمال؛ لاحتمال ان يكون الأصل أقل استعمالاً وقبولاً من الفرع لثقله وصعوبته على لسان العربي، فينبذه ويتركه.

ويرى أكثر المحدثين ان السبب الأساس في حدوث ظاهرة القلب المكاني يرجع الى ميل المتكلم لبذل أقل جهد ممكن في النطق مثله في ذلك مثل ظاهر تقريب الأصوات بعضها من بعض بالتماثل والتخالف والادغام والامالة والاتباع (التوافق الحركي)⁽⁴⁰⁾؛ بغية تحقيق الخفة والسهولة في النطق، وفي هذا يقول الدكتور أحمد مختار عمر: (وقد يقع القلب بغية التيسير وتحقيق نوع من الانسجام الصوتي كما في (طمس) التي قلبت الى (طسم) حتى لا يفصل بين الطاء والسين (وهما متقاربا المخرج بالميم)⁽⁴¹⁾.

والى ذلك ذهب الدكتور رمضان عبد التواب اذ قال: (والقلب المكاني هو عبارة عن تقديم بعض اصوات الكلمة على بعض لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوي، وهي ظاهرة يمكن تحليلها بنظرية السهولة والتيسير كذلك.)⁽⁴²⁾.

وبالبحث يميل الى عدّ نظرية السهولة والتيسير من أهم أسباب وجود ظاهرة القلب المكاني؛ لميل المتكلم الى ابتغاء الخفة في النطق، والتخلص من ثقل الكلام بشتى السُّبل. ولو حاولنا تفسير ميل الأصوات الى تبادل مواقعها في السلسلة الكلامية اعتماداً على هذه النظرية من خلال تفسير حدوثها باستعمال ثلاثة معايير:

الأول: التقارب المخرجي.

الثاني: التقارب في الصفات الصوتية.

الثالث: نظرية الصوت الأقوى.

فإننا سنحصل على نتائج مقبولة في تفسير وجود هذه الظاهرة في الكثير من الألفاظ المقلوبة، وسيكون تحليل أمثلة القلب من صورتين: تقديم اللام على العين، وتقديم العين على الفاء لكثرة ورودهما في كلام العرب بالقياس على صورتين: تقديم اللام على الفاء في (اشياء) وصورة تأخير الفاء عن اللام في (حادي) لقلتهما وندرتهما في كلامهم، وسوف أقنع بتحليل القدامى لهاتين الصورتين لشهرته في مؤلفاتهم.

فمن صورة تقديم اللام على العين اخترت الأمثلة الآتية⁽⁴³⁾:

جَبَذَ مقلوب عن جَذَبَ، ونَغَزَ مقلوب عن نَزَعَ شاكلي مقلوب عن شايك، وجائى مقلوب عن جائى، وشواعي مقلوب عن شوائع، وطسم مقلوب عن طمس، وأيطب مقلوب عن أطيّب، وصوابع مقلوب عن صواعق... الخ.

ففي (جَبَذَ) تقدمت الباء على الذال لتكون قريبة من صوت الجيم المماثل لها في صفتي الجهر والشدة (الانفجار)؛ ليكون عمل اللسان من وجه واحد من جهة الصفات وقد أيدت الدراسة الحديثة صحة ما ذهبنا اليه في إحدى طرقها الاحصائية باستعمال الحاسوب، إذ ظهر أن السلسلة الصوتية (ج ذ) من الكلمة (جذب) لها نسبة شيوع (8 مرات) والسلسلة (ذ

ب) في الآخر (5 مرات) في حين ان شيوع السلسلة (ج ب) (11 مرة) وشيوع السلسلة (ب ذ) في الآخر (9 مرات)⁽⁴⁴⁾ وهذا يدل على ان السلسلة (ج ب) أخف في النطق من السلسلة (ج ذ).

وفي (نغز) المقلوب عن (نزع) تقدمت الغين على الزاي؛ ليفصل بين صوتي: النون اللثوي، والزاي الاسناني اللثوي المتقاربين في المخرج وصفة الجهر، بصوت الغين الحلقى الأبعد في المخرج عنهما، اذ كلما تباعدت المخارج في حروف بنية الكلمة خفت في النطق.

وفي (شاكبي وجائي وشواعي) يفر المتكلم الى القلب بتقديم اللام وتأخير الهمزة التي هي عين الكلمة في نظر القدامى ليسهل تخفيفها بقلبها ياء، ابتغاء الخفة في النطق⁽⁴⁵⁾.

وفي (أيطب المقلوب عن أطيّب) ثقل على الناطق الجمع بين صوتين شديدين (انفجاريين) هما الهمزة والطاء ففصل بينهما في الصيغة المقلوبة بحرف لين يسير في النطق أقصد (الياء).

وفي (طسم المقلوب عن طمس) فضّل المتكلم القلب حتى لا يفصل بين الطاء والسين المتقاربين في المخرج بالميم الشفوية.

وأما في (صواقع المقلوب عن صواعق) فإنّ القاف تقدّم على العين تحت تأثير الصاد المطبق المفخم، ليعمل اللسان في التقخيم من وجه واحد.

وفي الصورة الثانية من صور القلب المكاني تُقدّم عين الكلمة على فائها ومن أمثلتها (أيس مقلوب عن يـ) وطفس مقلوب عن فطس وجه مقلوب عن وجه) واشباهها فانه يمكن تعليل حدوث القلب المكاني فيها اعتماداً على فكرة الصوت الأقوى التي قال بها علماء العربية، ومضمونها أنه إذا اجتمعت أصوات متقاربة المخرج في بنية كلمة ما، فانه يقدم الصوت الأقوى الأثقل في النطق منها على الأضعف الأخف؛ ليتحقق التوازن والتيسير في الكلام⁽⁴⁶⁾.

وعلى ما تقدم يفضل المتكلم تقديم الهمزة في (أيس) على الياء
لقوة الهمزة في النطق وثقلها مقارنة بالياء الخفيفة في النطق، لأن المتكلم
في بدء كلامه يكون أكثر نشاطاً وأقوى نفساً، والكلام نفسه ينطبق على
تقديم الطاء القوية بالجهر والشدة والاستعلاء والاطباق والتخيم على الفاء
الأضعف بالهمس والرخاوة في (طفَسَ المقلوب عن فطَسَ) وكذلك في (جاه)
تقدمت الجيم على (عين الكلمة) القوية بالجهر والشدة على حرف العلة
الضعيف بالاعلال والتغيير والخفاء.

وثمة أسباب أخرى لوجود القلب المكاني ذَكَرَها المحدثون منها:
اختلاف اللهجات، وقد أشار اليه القدامى في (العمرى ورعملي) و(صواعق
وصواعق) إذ عَدَّوها من لهجة تميم⁽⁴⁷⁾ كما أننا نلمسُ شيوع هذه الظاهرة في
اللهجات العامية المعاصرة في بلادنا العربية، فالعراقي يقول: (زميج) في
(مزيج) للخليط من التراب والسماذ و (نعلة) في (لعة) و(دحق) في (حَدَقَ)
في لهجة الموصل، والسوري يقول: (كبزرة) في (كزبرة) و (رعبون) في
(عربون) والسوداني يقول: (عنجة) في (نعجة) و (داير) في (رايد) بمعنى
(مريد) والمغربي يقول: (نَوَل) في (لَوْن) و(سَدَّاج) في (سَجَّاد) والمصري
يقول: (فَحَرَ) في (حَفَرَ) و(أَنَارِب) في (أَرَانِب) و (جواز) في (زواج) و
(أَهْل) في (أَهْلَه)⁽⁴⁸⁾.

وقد يكون سبب القلب في الأمثلة الآتفة الذكر خطأ في النطق
والسمع، اذ يلاحظ ان أكثر الأمثلة المقلوبة إما تكون ثقيلة في النطق يفر
منها العوام والأطفال الى صيغة أخف وأيسر بالقلب، وأما انها كلمات دخيلة
على العربية ينفر منها الذوق العربي كقولهم: (مرسح) في (مسرح)
و(قماويس) في (قواميس) و(هلتز) في (هتلز)⁽⁴⁹⁾.

الخاتمة

ونختم بحثنا هذا بذكر ما خلص إليه من خصائص واستنتاجات
تخصُّ هذه الظاهرة وأهمها:

1. ان القلب المكاني من الظواهر الصوتية التعاملية في أكثر لغات العالم القديمة والحديثة ولاسيما السامية منها، التي تهدف إلى تحقيق الجهد الأقل في النطق كغيرها من ظواهر تقريب الصوت من الصوت بغية الخفة والسهولة في النطق كالتماثل والادغام والتخالف والاعلال والاببدال والامالة واشراب الصوت بصوت آخر والاتباع (التوافق الحركي)، غير انها تختلف عن تلك الظواهر في ان القلب المكاني يقتصر التغيير فيه في مواقع ترتيب حروف الكلمات بالتأخير، وليس فيه تغيير في ذوات الحروف واجسامها كما يحدث في الظواهر المشار إليها آنفاً.

2. تبين ان القلب المكاني من الظواهر التي تحدث في مواضع بعينها في الكلمات، وهي ظاهرة تعتمد السماع في أكثر حالاتها وتكون قياسية في حالات قليلة ذكرها علماء العربية ومنها: في اسم الفاعل من الفعل الأجوف المهموز اللام نحو (جائي وشائي وشاكي ولاث...) وفي المقلوب من الجمع المكسر نحو (أشياء وقسيّ وشوائع وأينق وآرام وآبار...) مما يدل على أن أكثر القلب القياسي يكون في المعتل والمهموز كما ذهب الرضي الاستربادي.

3. ميز البحث بين نوعين من القلب: التصريفي الذي له أصل وفر متوافقان في المعنى بشكل كامل، والثاني: القلب الذي ينشأ من تقاليب الجذر الواحد، وهو ليس له من سبب الا التوسع في اللغة واغناء ألفاظها.

4. أظهر البحث أننا نستطيع ان نعلل وجود ظاهرة القلب المكاني في الصوامت، في قسم كبير من الألفاظ المقلوبة اعتماداً على ثلاثة معايير هي: التقارب المخرجي بين الصوامت المتجاورة في تراكيبيها، والتقارب

في صفاتها الصوتية، والثالث: نظرية الصوت الأقوى، وتأثيره في
الصوامت المجاورة له في التشكيل الصوتي.

والله ولي التوفيق

هوامش البحث

- (1) العين: 171/5.
- (2) ينظر: كشف اصطلاحات الفنون: 1171/3.
- (3) ينظر: المزهري في علوم العربية: 476/1.
- (4) الكتاب: 377/4 وينظر: المنصف: 93/2.
- (5) الكتاب: 467/3.
- (6) المنصف: 104 401 494/2.
- (7) الخصائص: 82-69/2.
- (8) المزهري في علوم العربية: 476/1.
- (9) الغريب المنصف: 654 - 647/3.
- (10) أدب الكاتب / 176-175.
- (11) جمهرة اللغة: 431/3.
- (12) المخصص: 28-27/14.
- (13) المزهري: 481-476/1.
- (14) تصحيح الفصيح وشرحه / 313.
- (15) المزهري: 481/1.
- (16) الممتع في التصريف: 617/2.
- (17) المنصف: 94/2.
- (18) شذا العرف في فن الصرف / 22.
- (19) الخصائص: 70-69/2.
- (20) شرح القصائد التسع المشهورات: 340 - 339/1، وينظر: المزهري: 481/1.
- (21) التطور اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه / 60.

- (22) شرح الشافية الرضي: 24/1.
- (23) فقه اللغات السامية /81، وينظر: التطور النحوي / 36.
- (24) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب للرضي: 21/1 - 22.
- (25) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب: 257/2.
- (26) شرح الشافية للرضي: 21/1.
- (27) الكتاب: 564/3.
- (28) المصدر نفسه 564/3 و 380/4.
- (29) ينظر: شرح الشافية: 29/1.
- (30) المقتضب 115/1.
- (31) الأصول في النحو 336/2.
- (32) التكملة: 259 - 260، وينظر: الخصائص: 78/2.
- (33) ينظر: الكتاب: 58/2.
- (34) هو الأجدع بن مالك الهمذاني، والبيت في الأصمعيات / 65، والمنصف 575/2 والشزن: الكعب الذي يلعب به، والبيت في وصف خيل مغيرة.
- (35) الممتع في التصريف 615/2 - 616.
- (36) ينظر: الكتاب: 380 و 377/4، والمنصف: 53/2، وشرح شافية ابن الحاجب للرضي: 24/1.
- (37) ينظر: المزهر في علوم العربية: 476/1 و 481.
- (38) نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها / 16.
- (39) المصدر نفسه / 120.
- (40) ينظر: التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث / 65.
- (41) دراسة الصوت اللغوي / 336.
- (42) التطور اللغوي مظاهره وعمله وقوانينه / 57.
- (43) جرى اختيار الأمثلة من كتاب المزهر في علوم العربية: للسيوطي لأنه أورد أكثر الألفاظ المقلوبة التي ذكرها من سبقه من علماء العربية في مؤلفاتهم، ينظر: 476/1-481.
- (44) ينظر: المقتضب: 115/1.
- (45) ينظر: دراسة الصوت اللغوي / 336.

- (46) ينظر: مفهوم القوة والضعف في اصوات العربية: 43. وأكثر من عنى بهذه الفكرة من علماء العرب ابن جني ينظر: الخصائص: 55/1.
- (47) ينظر: المزهر: 277/2 واللسان: (صقع) 68/10.
- (48) ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / 59 – 60.
- (49) ينظر: دراسة الصوت اللغوي / 336.